هكذا انطلت علينا الحيلة وعليه وعليكم

أحمد عمر

سألكَ عن سبب منع الصيد في سواحل البحر الأحمر في مصر، وكان قد قيل للحفاظ على الثروة السمكية من أجل الأجيال القادمة. أما منع أهل غزة منه فسببُه معروف، فتُذكر قصة الخاتم السحري، ولها عدّة روايات، وهي لدى المحققين موضوعة، مكذوبة، لكن ثمّة من استأنس بها، ووجدها مفيدة ومسلية، «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، تقول إحداها: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فاختلسه الشيطان من تحته. قال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان، لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف (لم يذكر الراوي اسم الشيطان الثلاثي): كيف تضلّون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك (للحقيقة دائماً ثمن باهظ)، فأعطاه خاتمه! (إشارة التعجّب مني). فلما أخذ الشيطان الخاتم، جلس على كرسي سليمان، متشبّهاً بصورته (من غير مكياج، فللشيطان قدرة تصوّر) داخلاً على نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب (لم تذكر الرواية إن كان قد باع أصول البلد أو استدان من البنك الدولي)، واختُلف في إصابته نساء سليمان، فحكى عن ابن عباس ووهب بن منبه: أنه كان يأتيهن في حيضهن (يا نهار أزرق). وقال مجاهد: منع من إتيانهن (والا راق على جوانب الشرف الرفيع الدم)، وزال عن سليمان ملكه (من غير شكّ)، فخرج هاربًا إلى ساحل البحر يتضيّف الناس، ويحمل سموك الصيادين بالأجر (أسماك)، وإذا أخبر الناس أنه سليمان (يا ناس يا عالم) أكذبوه، قال قتادة: ثم إنّ سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان فنّاص، ترسُمها الكاميرا المتسلطة فوق تلك الشّقاط.

تزداد حركةُ النقاطِ فزعاً تاركةً فراغاً في مُنتصفِ هذه اللوحة المُنزوِعة الألوان، في هذا الفراغ، كان يكمنُ الهدفُ، أو كان يكمنُ الموتُ، وحيثُ يُبعدُ ذلك الفراغُ المتشكّلُ النقاطَ المتحركةَ عن فمِّ الموتِ ويَحولُ دون تحوّلها في أعيننا إلى خيالاتٍ عن هدفٍ للقاتلِ بالمحوِ. الرؤوسُ السودُ هذهِ لم تكنْ نُقاطاً هندسيّةً ولا طيوراً، ولا حتّى لعبة كمبيوتر، زَعْمُ المحاولة التي تبدو أنّها كانتْ سَتَنجحُ في جعلنا نُعتقدُ ذلكَ، إذا ما نزَعنا سياقَ حركتِها وتخيّلنا عن إحداثيّاتٍ أُخرى، فهي لا تبدو إلّا كإشاراتٍ هندسيّةٍ بعيدةً عن سياقِ فعلِ الإبادةِ، وهذا ينفي صفتَها الحقيقيّةَ، عشراتُ الآلافِ مِنَ الرؤوسِ البشريّةِ التي اجتمعتْ بعد سنواتٍ من الحصارِ وشهورٍ من الإبادةِ في غزّة، اجتمعتْ وتراكضتْ للحصولِ على لُقمةِ خبزٍ... البحثُ عن الطحينِ، يا للمصادفةِ المَعيبة!

هذهِ الرؤوسُ البشريّةُ السودُ كانت تبحثُ عن طحينٍ أبيضَ، تبحثُ عن مساعداتٍ غذائيّةٍ تُسقَطُ من الجوِّ، قد تُبقي بعضَ الأفرادِ على قيدِ الحياةِ، إنْ حالفَهم الحظُّ ولم تسقطْ على رؤوسِهِمْ فتقتلَهُمْ، كما حصلَ مع الطفلِ مهنّد!

لنتخيّلْ أنّها تُصوّرُ من الأعلى عن يومِ الحشرِ، وهذا الحشرُ ليس تدافعاً لتلقّي العقابِ والثوابِ، إنّهُ مجرّدُ تَدافعٍ وتَفرُّقٍ، سببُهُ حيادِيّةٌ باردةٌ لا تحركُها سوى غريزةٌ أولى، وأبسطُ حقٍّ عرفهُ الإنسانُ منذُ أنْ وُجِدَ، وهو حقُّ الطعامِ حقُّ البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وهذا الحقُّ المشروطُ بتدافعِ النقاطِ السودِ كانَ خالياً من أيِّ إضافةٍ أخرى سوى ذلك، ولا يمكنُ تخيّلُهُ أبعدَ من ذلك، وهوَ أمرٌ لا يدخلُ في اللوحةِ المسرّبةِ عمداً، وقصديّةُ تسريبِها لم يكنْ عبثاً، فهيَ درسٌ آخرُ للطعنِ في الجراحِ وللقولِ: انظروا، كنّا نعرفُ أنّنا نُبيدكم، فماذا أنتم فاعلون!

إنّهُ استنفارٌ لأقصى درجاتِ العنفِ والغضبِ والقهرِ والعدمِ لدى الضحايا، وهوَ ما يُمكنُ تسميتُهُ بتنكيلِ الجثّتِ، قبلَ الموتِ وبعدَه، بمعنى تحويلِ الأحياءِ قبلَ موتِهم إلى لا شيءٍ، إنّهم مجرّدُ نقاطٍ هندسيّةٍ، تتحركُ وتتدافعُ!

وإظهارُ صورةِ هذا التنكيلِ بهذهِ الطريقةِ المتبسطة لم يحملْ في طيّاتِهِ مؤامرةً بعدمِ الاعترافِ بالجريمةِ، على العكسِ تماماً، هذا التسريبُ إعلانٌ وإقرارٌ ضمنيٌّ بعدمِ الاكتراثِ: إنّهُ تسريبٌ واضحٌ للعيانِ، ولا لبسَ فيه، فالرائي من فوقِ، يرصدُ النقاطَ المتحرّكةَ كرؤوسِ سودٍ، والرائي من تحتِ وهمِ الجنودُ الإسرائيليّونَ المدجّجونَ بأسلحتهم، كانوا يرونَ فعلاً هذا التدافعَ الذي سبّبه الجوعُ، همْ لم يروا النقاطَ السودَ كأشكالٍ هندسيّةٍ، نحنُ (المتفرّجينَ) نراهم هكذا عن بعدٍ، كلٌّ يرى حركةَ هذهِ الرؤوسِ من موقعِهِ، وهذا أمرٌ نسبيٌّ، غريزةٌ أولى، وأبسطُ حقٍّ عرفهُ الإنسانُ منذُ أنْ وُجِدَ، وهو حقُّ الطعامِ حقُّ البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وهذا الحقُّ المشروطُ بتدافعِ النقاطِ السودِ كانَ خالياً من أيِّ إضافةٍ أخرى سوى ذلك، ولا يمكنُ تخيّلُهُ أبعدَ من ذلك، وهوَ أمرٌ لا يدخلُ في اللوحةِ بعيدة عن توصيف واقع الحال. لا نتحدّث عن مجموعة غازية أو قادمة من الشرق أو الغرب، بل عن مجموعة عسكرية عالية التسليح والتدريب، كانت جزءًا من القوات الأمنية النخبوية. جعلها هذا الانتماء باسلحتهم، كانوا يرونَ فعلاً هذا التدافعَ الذي سبّبه الجوعُ، همْ لم يروا النقاطَ السودَ كأشكالٍ هندسيّةٍ، نحنُ (المتفرّجينَ) نراهم هكذا عن بعدٍ، كلٌّ يرى حركةَ هذهِ الرؤوسِ من موقعِهِ، وهذا أمرٌ نسبيٌّ، غريزةٌ أولى، وأبسطُ حقٍّ عرفهُ الإنسانُ منذُ أنْ وُجِدَ، وهو حقُّ الطعامِ حقُّ البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وهذا الحقُّ المشروطُ بتدافعِ النقاطِ السودِ كانَ خالياً من أيِّ إضافةٍ أخرى سوى ذلك، ولا يمكنُ تخيّلُهُ أبعدَ من ذلك، وهوَ أمرٌ لا يدخلُ في اللوحةِ المسرّبةِ عمداً، وقصديّةُ تسريبِها لم يكنْ عبثاً، فهيَ درسٌ آخرُ للطعنِ في الجراحِ وللقولِ: انظروا، كنّا نعرفُ أنّنا نُبيدكم، فماذا أنتم فاعلون!

إنّهُ استنفارٌ لأقصى درجاتِ العنفِ والغضبِ والقهرِ والعدمِ لدى الضحايا، وهوَ ما يُمكنُ تسميتُهُ بتنكيلِ الجثّتِ، قبلَ الموتِ وبعده، بمعنى تحويلِ الأحياءِ قبلَ موتِهم إلى لا شيءٍ، إنّهم مجرّدُ نقاطٍ هندسيّةٍ، تتحركُ وتتدافعُ!

وإظهارُ صورةِ هذا التنكيلِ بهذهِ الطريقةِ المتبسطة لم يحملْ في طيّاتِهِ مؤامرةً بعدمِ الاعترافِ بالجريمةِ، على العكسِ تماماً، هذا التسريبُ إعلانٌ وإقرارٌ ضمنيٌّ بعدمِ الاكتراثِ: إنّهُ تسريبٌ واضحٌ للعيانِ، ولا لبسَ فيه، فالرائي من فوقِ، يرصدُ النقاطَ المتحرّكةَ كرؤوسِ سودٍ، والرائي من تحتِ وهمِ الجنودُ الإسرائيليّونَ المدجّجونَ بأسلحتهم، كانوا يرونَ فعلاً هذا التدافعَ الذي سبّبه الجوعُ، همْ لم يروا النقاطَ السودَ كأشكالٍ هندسيّةٍ، نحنُ (المتفرّجينَ) نراهم هكذا عن بعدٍ، كلٌّ يرى حركةَ هذهِ الرؤوسِ من موقعِهِ، وهذا أمرٌ نسبيٌّ، غريزةٌ أولى، وأبسطُ حقٍّ عرفهُ الإنسانُ منذُ أنْ وُجِدَ، وهو حقُّ الطعامِ حقُّ البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وهذا الحقُّ المشروطُ بتدافعِ النقاطِ السودِ كانَ خالياً من أيِّ إضافةٍ أخرى سوى ذلك، ولا يمكنُ تخيّلُهُ أبعدَ من ذلك، وهوَ أمرٌ لا يدخلُ في اللوحةِ

> نقاطٌ سودٌ متشابهةٌ، تراهم الطائرةُ هكذا وعلى العالم كلّه انْ يراهم هكذا، هذا ما تقولهُ هندسةُ القتل

الذينَ يرونَ النقاطَ السوداءَ من الأعلى، رغمَ ما ادّعوا في البدايةِ أنّ ما جرى كانَ بطريقِ الخطأ، نُحنُ نعرفُ أنّهم يتلقونَ الأوامرَ، وهمْ قد رأوا الجموعَ المتدافعةَ للحصولِ على لقمةِ الخبزِ، وعرفوا أنّهم جموعٌ مسالمةٌ وجائعةٌ، هذهِ الجموعُ التي نَجحَ أحياناً في قصرِ الوجدانِ على النظرِ في فراغِ تلكَ المساحةِ المطلوبةِ منها، وهي إعادةُ تأهيلِ البشرِ للقبولِ بالمجزرةِ، لكن تنسى تلكَ الآلةُ المتوحّشةُ أنّها تحملُ نقيضَها وموتَها في داخلِها، ففي الوقتِ الذي يُنشأُ لنا رؤيةُ هؤلاءِ رقمنةُ الصورِ ودمقرطتها تعيدُ من جهةٍ أخرى التأكيدَ عليها وتثبيتها، ترسمُ لوحةً جديدةً واقعيّةً، ليست تجريديّةً أو هندسيّةً، بل لوحةً للجحيمِ مصوراً وواضحاً أمامَ أعينِ العالم.

والفراغُ الذي تتركُهُ هذهِ الرؤوسُ السودُ المتحوّلة إلى أهدافٍ مصغّرةٍ قابلةٍ للتحريلِ، لا تأتي إلّا لتؤكدَ أنّ فتحةَ الرشاشِ هي نقطةٌ سوداءُ أخرى أيضاً، ولكنّ عينَ الرائي من خلالِ طائرةِ مسيّرةٍ من دونِ طيارٍ لا تساوي بينَ تلكما القيمتينِ المتقابلتينِ؛ قيمةُ الحياةِ داخلَ راسٍ بشريٍّ، وقيمةُ الموتِ خارجةً من نقطةٍ سوداءَ في رؤوسٍ، أو مصوّرةً من عينٍ سوداءَ رقميّةٍ في طائرةٍ الرويوت.

هذهِ المحاولاتُ لمسحِ صورةِ الضحايا التي تنتشرُ في عالمنا الآنَ، والتي تُحاول جعلَها مؤتمتةً ونظيفةً، كما يُراد لها، نَجحَ أحياناً في قصرِ الوجدانِ على النظرِ في فراغِ تلكَ المساحةِ المطلوبةِ منها، وهي إعادةُ تأهيلِ البشرِ للقبولِ بالمجزرةِ، لكن تنسى تلكَ الآلةُ المتوحّشةُ أنّها تحملُ نقيضَها وموتَها في داخلِها، ففي الوقتِ الذي يُنشأُ لنا رؤيةُ هؤلاءِ البشرِ منفصلينَ عن قضيتِهم وتكثيفِ معاناتِهم عبرَ هذا التسريبِ الذي حوّلَ الفلسطينيّينَ لعلاماتٍ هندسيّةٍ لا قيمةَ لها، ونَزعَ عنهمْ إنسانيتَهم لتجعيلِ المجزرةِ، في هذا السياقِ تماماً يتحوّلُ فعلُ الإقصاءِ إلى أداةٍ نشطةٍ جديدةٍ، تجعلُ هذهِ الغايةَ أمراً لا يُمكنُ تمريرُه، فالمجزرةُ التي قُتلَ فيها أكثرُ من مئةٍ وسبعينَ فرداً، وهمْ يطلبونَ لُقمةَ الخبزِ وجُرحَ فيها أكثرُ من سبعمئةِ آخرين، لا تَنقلُ إلينا صُراخَ الأطفالِ واستغاثاتِهم ولا تُرينا الجثثَ ولا تفتحُ أحشاءَ الفظاعةِ أمامَ أعيننا، وهمْ وإنْ أرادوا أنْ يُحرسوا الألمَ البشريَّ ورميهُ في كهفِ النسيانِ، لكنّهم جعلوهُ أمامَ وجوهِنا لنَحدقَ فيه، وهمْ حين ينشرونَ فضيحتَهمْ غيرَ مكترثينَ بالعواقبِ، حين يعلنونَ عن جريمتِهم دونَ أدنى خَوفٍ أو رعشةٍ، ينشرونَ الرعبَ المصحونَ بالصدمةِ مرّةً إثرَ مرّةٍ، ومجزرةُ تلوَ المجزرةِ، ونحنُ نحدقُ في مستقبلِ ملايينِ النقاطِ السودِ التي تتحركُ فوقَ كوكبِ الأرضِ والتي تبدو بشكلٍ أو بآخرَ هدفاً ما للتبجيحِ بالجريمةِ، ربّما لذلكَ كانَ لا بدَّ لهم من الإيغالِ في التنكيلِ ومسحِ صورةِ الجريمةِ، غيّرَ بثُّ صورٍ أخرى تحاولُ إمحاءَ صورِ الأرضِ الحقيقيّةِ، وهي صورُ السماءِ التي لا تزالُ تطِلُّ أمامَ أعيُنِنا، كرؤوسِ سُودٍ تتراكض!

(روائية سورية)

رؤوسٌ سوداءُ تتراكض

سمر يزبك

نقاطٌ سُودٌ تتراكضُ، لوحةٌ كاملةٌ بالأبيضِ والأسودِ، ولا مجالَ هُنا للكلامِ عن الألوانِ. لقطةٌ صغيرةٌ مرّت خطفاً، تفاصيلُ كثيرةٌ، نقاطٌ سُودٌ تُعلنُ عن مجزرةٍ أُخرى في غزّة، ستأخذُ اسماً يميّزُها كغيرِها من المجازرِ؛ مجزرةُ الطحينِ في شارعِ الرشيد. لا يُجافي هذا التسريبُ الذي مرّ بوصفِه تفصيلاً تقنيّاً في خبرٍ إعلاميٍّ هدفُ الجهةِ التي بثّتْه ونشرتْه، وهو نشرُ الرعبِ والياسِ والتشفّي من الغزيّين.

الرؤوسُ السُودُ التي تقتربُ وتبتعدُ، تتحوّلُ في لحظةٍ واحدةٍ إلى كُتلٍ سُودٍ كبيرةٍ، تجتمعُ أحياناً ثمّ تتفرّقُ، مثلُ أسرابِ طيورٍ في السماءِ، تحاولُ الاجتماعَ والْتحامَ بفصولِ ربيعٍ أخرى، لكنّها لا تستطيعُ إتقانَ الحركةِ حتّى النهايةِ، بسببِ علامةٍ تبدو كعدسةِ قنّاصٍ، ترسُمها الكاميرا المتسلطةُ فوقَ تلك النّقاط.

اعتبروا أن بإمكانِ المعركةِ أن تنتهيَ بعد ضربِ المقرّاتِ العسكريةِ للقوةِ المتمرّدة، كان سكّانُ الخرطوم، الذين بدأ المتمرّدون في طردِهم من بيوتِهم والتمركزِ فيها من أجلِ تصعيبِ المهمّةِ على الجيشِ، كانوا الأكثرَ صدمةً، أما الجيشُ فبدا لوهلةٍ مكتوفَ اليدين، فلا هو قادرٌ على التمدّدِ الأرضيِّ، ولا هو قادرٍ على التوسّعِ في استهدافِ الأحياءِ السكنية.

كان السودانيون من البداية يبحثون عن التطمينات، كما كانت تريحهم الأصواتُ الكثيرةُ التي كانت واثقةً من حسمِ الجيشِ السودانيِّ المعركة. لم تنبعْ هذه الثقةُ فقط من الانحيازِ للجيشِ في معركتِه ضدّ الميليشيا المتمرّدة، وإنّما أيضاً من القياسِ على تجاربِ سابقةٍ ومحاولاتٍ تاريخيةٍ فاشلةٍ لاحتلالِ الخرطوم. كانت هذه التطمينات تدفعُ إلى الصبرِ والانتظار. كان السودانيُّ يعتبرُ، في قرارةِ نفسِه، أنّ الجيشَ الذي قاتلَ عشراتِ المجموعاتِ المتمرّدة، وفي مقدّمتِها جيشُ الحركةِ الشعبيةِ الجنوبية، لا يمكنُ أن تهزمَه مليشيا. ومن عبارِ سمعناها في الأيامِ الأولى للحربِ من مصلّين وخبراءَ عبارةَ لصديقٍ سوري، قال فيها بحزنٍ: «نحن أيضاً ظننا في البدايةِ أنّ الحربَ لن تستمرَ طويلاً». كلما امتدت الأيامُ بهذه الحربِ أو بقوات التيغراي الإثيوبية، تصلحُ للتقريبِ بشكلٍ كاريكاتيريّ، لكنّها تظلّ بإطلالةِ شهرِ رمضان، تقترب من الذكرى السنويةِ الأولى لحربِ السودان. لم يكنْ أحدٌ من الخرطوميّين الذين خرجوا من بيوتِهم لأداءِ العمرةِ أو الصيامِ مع الأهلِ يتصوّرُ أن ذلك الخروجَ من البيتِ لن تكونَ بعده عودةٌ في المستقبلِ القريبِ. حتى بعد بدءِ المعاركِ، تصوّرَ أغلبُ الناسِ أنّها مسألةُ وقتٍ، وأنّ الحربَ لن تمتدّ إلى بيوتِهم.

كان تبنّي قوات الدعمِ السريعِ استراتيجيةَ غزوِ المناطقِ السكنيةِ صادماً لجميعِ من اعتبروا أن بإمكانِ المعركةِ أن تنتهيَ بعد ضربِ المقرّاتِ العسكريةِ للقوةِ المتمرّدة، كان سكّانُ الخرطومِ، الذين بدأ المتمرّدون في طردِهم من بيوتِهم والتمركزِ فيها من أجلِ تصعيبِ المهمّةِ على الجيشِ، كانوا الأكثرَ صدمةً، أما الجيشُ فبدا لوهلةٍ مكتوفَ اليدين، فلا هو قادرٌ على التمدّدِ الأرضيِّ، ولا هو قادرٍ على التوسّعِ في استهدافِ الأحياءِ السكنية.

كان السودانيون من البداية يبحثون عن التطمينات، كما كانت تريحهم الأصواتُ الكثيرةُ التي كانت واثقةً من حسمِ الجيشِ السودانيِّ المعركة. لم تنبعْ هذه الثقةُ فقط من الانحيازِ للجيشِ في معركتِه ضدّ الميليشيا المتمرّدة، وإنّما أيضاً من القياسِ على تجاربِ سابقةٍ ومحاولاتٍ تاريخيةٍ فاشلةٍ لاحتلالِ الخرطوم. كانت هذه التطمينات تدفعُ إلى الصبرِ والانتظار. كان السودانيُّ يعتبرُ، في قرارةِ نفسِه، أنّ الجيشَ الذي قاتلَ عشراتِ المجموعاتِ المتمرّدة، وفي مقدّمتِها جيشُ الحركةِ الشعبيةِ الجنوبية، لا يمكنُ أن تهزمَه مليشيا. ومن عبارٍ سمعناها في الأيامِ الأولى للحربِ من مصلّين وخبراءَ عبارةَ لصديقٍ سوري، قال فيها بحزنٍ: «نحن أيضاً ظننا في البدايةِ أنّ الحربَ لن تستمرَ طويلاً». كلما امتدت الأيامُ بهذه الحربِ أو بقوات التيغراي الإثيوبية، تصلحُ للتقريبِ بشكلٍ كاريكاتيريّ، لكنّها تظلّ

> كانت دول مجاورة تكثف رهانها على المليشيا وتوفر لها السند الدبلوماسي

بعيدة عن توصيفِ واقعِ الحالِ. لا نتحدّثُ عن مجموعةٍ غازيةٍ أو قادمةٍ من الشرقِ أو الغربِ، بل عن مجموعةٍ عسكريةٍ عاليةِ التسليحِ والتدريبِ، كانت جزءًا من القواتِ الأمنيةِ النخبويةِ. جعلها هذا الانتماءُ باسلحتِهم، الناسُ الذين كان يحرّرُهم ما كانت الميليشيا تسميه سيطرةً على مواقعَ مهمةٍ في الخرطومِ، كان يقوتُ عليهم تذكّرُ أن هذه السيطرةَ لم تكنْ إثرَ اشتباكٍ، وإنّما إثرَ تسليمٍ في فعلٍ يمكنُ تشبيهُه بخيانةِ حارسٍ ما اؤتمنَ عليه من مبانٍ أو أموالٍ. كانت هذه الصدمةُ، التي تحوّلَ فيها حُماةُ المكانِ إلى تهديدٍ، من عواملِ القوةِ التي جعلت بعضَهم يؤمنُ بنجاحِ عمليةِ السيطرةِ على الخرطوم، مع احتدامِ المعاركِ وقدرةِ الجيشِ على امتصاصِ الصدمةِ، ومنعِ المعتدينَ من السيطرةِ على المطاراتِ ومقرّاتٍ أخرى ذاتِ أهميةٍ، ظهرت عواملُ قوةٍ جديدةٍ لدى الميليشيا، حيث تبنّت بجانبِ «استراتيجيةِ المنازلِ» مخطّطَ فتحِ الأبوابِ للمرتزقةِ.

(كاتب سوداني في لندن)

عن أسباب تأخر الحسم في حرب السودان

هدى الفاتح

بإطلالةِ شهرِ رمضان، تقترب من الذكرى السنويةِ الأولى لحربِ السودان. لم يكنْ أحدٌ من الخرطوميّين الذين خرجوا من بيوتِهم لأداءِ العمرةِ أو الصيامِ مع الأهلِ يتصوّرُ أن ذلك الخروجَ من البيتِ لن تكونَ بعده عودةٌ في المستقبلِ القريبِ. حتى بعد بدءِ المعاركِ، تصوّرَ أغلبُ الناسِ أنّها مسألةُ وقتٍ، وأنّ الحربَ لن تمتدّ إلى بيوتِهم.

كان تبنّي قوات الدعمِ السريعِ استراتيجيةَ غزوِ المناطقِ السكنيةِ صادماً لجميعِ من اعتبروا أن بإمكانِ المعركةِ أن تنتهيَ بعد ضربِ المقرّاتِ العسكريةِ للقوةِ المتمرّدة، كان سكّانُ الخرطومِ، الذين بدأ المتمرّدون في طردِهم من بيوتِهم والتمركزِ فيها من أجلِ تصعيبِ المهمّةِ على الجيشِ، كانوا الأكثرَ صدمةً، أما الجيشُ فبدا لوهلةٍ مكتوفَ اليدين، فلا هو قادرٌ على التمدّدِ الأرضيِّ، ولا هو قادرٍ على التوسّعِ في استهدافِ الأحياءِ السكنية.

كان السودانيون من البداية يبحثون عن التطمينات، كما كانت تريحهم الأصواتُ الكثيرةُ التي كانت واثقةً من حسمِ الجيشِ السودانيِّ المعركة. لم تنبعْ هذه الثقةُ فقط من الانحيازِ للجيشِ في معركتِه ضدّ الميليشيا المتمرّدة، وإنّما أيضاً من القياسِ على تجاربِ سابقةٍ ومحاولاتٍ تاريخيةٍ فاشلةٍ لاحتلالِ الخرطوم. كانت هذه التطمينات تدفعُ إلى الصبرِ والانتظار. كان السودانيُّ يعتبرُ، في قرارةِ نفسِه، أنّ الجيشَ الذي قاتلَ عشراتِ المجموعاتِ المتمرّدة، وفي مقدّمتِها جيشُ الحركةِ الشعبيةِ الجنوبية، لا يمكنُ أن تهزمَه مليشيا. ومن عبارٍ سمعناها في الأيامِ الأولى للحربِ من مصلّين وخبراءَ عبارةَ لصديقٍ سوري، قال فيها بحزنٍ: «نحن أيضاً ظننا في البدايةِ أنّ الحربَ لن تستمرَ طويلاً». كلما امتدت الأيامُ بهذه الحربِ أو بقوات التيغراي الإثيوبية، تصلحُ للتقريبِ بشكلٍ كاريكاتيريّ، لكنّها تظلّ تجاوزُ مفهومَ العامِ الماضي، الذي كان

السكوت عن سورية والسوريين

دلال البزري

في الثاني من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، أي قبل خمسة أيام من عملية طوفان الأقصى، وخوضه «معركة مشاغلة إسرائيل»، كان الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، يخطب في ذكرى المولد النبوي. وكان موضوعه اللاجئين السوريين في لبنان. سمّاهم «نازحين»، اعتبرهم «تهديداً وجودياً وأمنياً للبنان»، ودعا إلى «خطّة استراتيجية» لمعالجة «ملفّهم»، فكانت إشارة انطلاق لتجديد الحملة العنصرية على اللاجئين السوريين في لبنان، ذات الأرضية الجماهيرية الواسعة، والسوابق المعهودة، من أن الكهرباء والماء والرواتب التعليم البناء والأمن... إلى ما هنالك مما يشهدُه لبنان من آفات، كله وراءه السوريون في لبنان. وكانت قد تكاثرت في هذا الوقت القريب جمعيات ومنظمات مختلفة التوجهات والطوائف، يكفي عنوانها لإخبارك عن مدى اندماجها بتعليمات الأمين العام والجو الجماهيري. منها مثلاً: «الحملة الوطنية لمواجهة التوطين السوري»، أو «الحملة الوطنية لإعادة النازحين»، أو «الحملة الوطنية لتحرير لبنان من الاحتلال الديمغرافي السوري»...

هكذا، مدّ رئيس الوزراء، نجيب ميقاتي، يده بشحذ الأموال من الدول المقتدرة، دعماً للبنان، لأنه «يتحمّل أعباء استضافة السوريين». وهكذا أيضا، وفي خضم الحرب على غزّة، أعلن المدير العام للأمن العام عن تنظيم قافلة من النازحين وبعضهم تصيبُه الدهشة: كيف أن الحزب الذي شارك بشار بقتلهم على هذا النحو الصناعي، هو نفسُه الحزب الذي يقول إنه، بحربه في الجنوب، يساهم في تحرير فلسطين من إسرائيل؟ وكيف أن نظامهم الذي رثاهم على المرّية الفلسطينية و«صمودهم» أمام التطبيع ورعايته لمئويات فلسطينية ولأصناف الأدبيات المؤيدة كلها لفلسطين... كيف له مثلاً أن يمنعهم من التظاهر من أجل غزّة، على الأقل مثل الحوثيين في اليمن، المانعة الأخرى، أو يفتح الجبهة على الجولان، طالما دفع من دمهم ثمن «صمودهم» هذا بوجه إسرائيل؟ وطالما هذه الأخيرة تشنّ على أرضه غارات منتظمة؟

وتتحوّل الدهشة لدى أحدهم إلى حزّورة، عندما يستمع إلى حسن نصر الله في الخطاب نفسه (المذكور أعلاه)، يعلن أن المسؤول عن مأساة اللجوء السوري في لبنان هو أميركا، منقذة بشّار على أثر جريمته الكيماوية، وأنه إزاء رفعت أميركا قانون قيصر عن سورية، عقابا على مذابح مخابراتها في سجونها، سوف يعود مئات الآلاف إلى بلدهم...

لماذا هذا التمييز بين القضيتين السورية والفلسطينية؟ ربما لأن قضية فلسطين قديمة: من حسنات هذا القِدَم، أن أصحابها باتوا على درجةٍ عاليةٍ من الخبرة في الصراع مع إسرائيل، أقصد بالخبرة هنا: العصب المشدود، والنضالية المتأصلة، اكتساب ثقافات عبرية وعالمية، وإرادة هوية وحياة، بتنظيمهم، في الشتات وفي الداخل، بفصائلهم المتصارعة، بشبكات الدعم بينهم، بفنونهم التأصيلية، برموزهم التي أصبحت ذائعة، بمجتمعهم، أفرادهم، شعائرهم، كتّابهم، مؤرّخيهم، شتات عمره ثلاثة أرباع القرن، بين أوباما وبوتين منذ عقد، استخدمه بشار اثنتين وثمانين مرّة إلخ.

بشّار الأسد بأجهزته، وشركائه الذين أصبحوا مضاربين، إيران وميليشياتها، والجيش الروسي... تفوّقوا في قتل السوريين وتدمير حيواتهم وعمرانهم واقتصادهم... إجرامياً، بقوا فوق مستوى المعارضين لهم، من «داعش»، إلى قوات سورية الديمقراطية وهيئة تحرير الشام، وتركيا في عملياتها المتفرّقة، أو معركتها في عفرين... إذا جمعنا القتلى على أيدي هؤلاء، فلا يتجاوزون العشرة آلاف، نقطة في بحر الإجرام الأسدي، الروسي الإيراني، ولكن أيضاً طاقة أخرى تضيف إلى اللائحة نوعاً آخر من جحيمية حياة السوريين.

بمرّ هذا كله بصمت. ورغم أن السوريين وطنيون عروبيون بجغرافيتهم وتاريخهم، فهم الآن يشعرون بحسرة. كيف يُسكت عن جرائم نظامهم وحلفائه؟ وتكون كل هذه «الضجّة» لفلسطين؟ كيف يشعر العالم بفلسطين ولا يشعر بسورية؟ مع أن المظلومية في حالتهم تقارن الآن بمظلومية الفلسطينيين؟

انظر إلى الصور الخارجة عن الموقعين، غزّة وسورية: الخراب العمراني نفسه، الأكفان والمقابر الجماعية، المقابر العشوائية، أطفال ونساء والرجال تحت الأنقاض، حصار ومجاعة، مجازر جماعية، أسلحة محظورة، جرائم فردية مروّعة يصوّرها مرتكبوها بفرحة المنتصرين، معتقلين عراة، في الشاحنات أو مختفين، أو عائدين جثثاً مجهولة الاسم.

وبعضهم تصيبُه الدهشة: كيف أن الحزب الذي شارك بشار بقتلهم على هذا النحو الصناعي، هو نفسُه الحزب الذي يقول إنه، بحربه في الجنوب، يساهم في تحرير فلسطين من إسرائيل؟ وكيف أن نظامهم الذي رثاهم على المرّية الفلسطينية و«صمودهم» أمام التطبيع ورعايته لمئويات فلسطينية ولأصناف الأدبيات المؤيدة كلها لفلسطين... كيف له مثلاً أن يمنعهم من التظاهر من أجل غزّة، على الأقل مثل الحوثيين في اليمن، المانعة الأخرى، أو يفتح الجبهة على الجولان، طالما دفع من دمهم ثمن «صمودهم» هذا بوجه إسرائيل؟ وطالما هذه الأخيرة تشنّ على أرضه غارات منتظمة؟

وتتحوّل الدهشة لدى أحدهم إلى حزّورة، عندما يستمع إلى حسن نصر الله في الخطاب نفسه (المذكور أعلاه)، يعلن أن المسؤول عن مأساة اللجوء السوري في لبنان هو أميركا، منقذة بشّار على أثر جريمته الكيماوية، وأنه إزاء رفعت أميركا قانون قيصر عن سورية، عقابا على مذابح مخابراتها في سجونها، سوف يعود مئات الآلاف إلى بلدهم...

لماذا هذا التمييز بين القضيتين السورية والفلسطينية؟ ربما لأن قضية فلسطين قديمة: من حسنات هذا القِدَم، أن أصحابها باتوا على درجةٍ عاليةٍ من الخبرة في الصراع مع إسرائيل، أقصد بالخبرة هنا: العصب المشدود، والنضالية المتأصلة، اكتساب ثقافات عبرية وعالمية، وإرادة هوية وحياة، بتنظيمهم، في الشتات وفي الداخل، بفصائلهم المتصارعة، بشبكات الدعم بينهم، بفنونهم التأصيلية، برموزهم التي أصبحت ذائعة، بمجتمعهم، أفرادهم، شعائرهم، كتّابهم، مؤرّخيهم، شتات عمره ثلاثة أرباع القرن، بين

> شارك السوريون في الربيع العربي. أرادوا أن يكون ثمّة انتخابات، حرّية رأي تعبير وكتابة، مشاركة في القرارات التي تعني يومياتهم ومستقبلهم

القارّات الخمس. من بعضها، استطاعوا أن ينفذوا إلى العالم، يؤثروا في الرأي العام العالمي... وكلها انشطة صارت عريقة، جاء «طوفان الأقصى» ليعزّزها، يوثّقها، ويفتح مخيّلتها على أنواع مختلفة من التعبير والتأثير.

ربما لأن القتل السوري «شرعي». أي أن «الحكومة» هي صاحبة المبارة بالقتل ويطلب العونَ من الخارج ليكون قتلا ناجحا. وحجّة القتلى لا تسير هنا. إنهم سوريون ببعضهم. ماذا يخصّنا؟ كاد أوباما أن يقول وقت تبريره تراجعه عن «خطّه الأحمر» باستخدام بشّار السلاح الكيماوي. أوباما هنا، يقود موقفا لم يبقَ زعيم عربي أو إسلامي أو غربي إلا وتبنّاه. فيما «العقوبات» الأميركية يتحجّج بها بشّار لاستمرار تفويض الروس والإيرانيين باحتلال بلاده ونهبها، مادّيا واستراتيجيا.

ربما: لأن قضية فلسطين مقدّسة، جامعة لعوالم شاسعة. عربية خصوصا. لا يتجرّأ حاكم عربي على الإفصاح عن عدائه لها، أو عن تلاعبه بها لنيْل حظوة من هنا أوهناك، فيما الحاكمان التركي والإيراني يتاجران بها على نحو غير متساوٍ. وكله يأتي مثل «تتويج» لمشاعر القضّاصة المتجذّرة لدى العرب أفرادا، تجاه القضية الفلسطينية.

أما قضية السوريين، فما هي؟ إنها قضية طارئة على ذاكرة الجميع. إنها الديمقراطية. السوريون شاركوا في الربيع العربي. أرادوا أن يكون ثمّة انتخابات، حرّية رأي تعبير وكتابة، مشاركة في القرارات التي تعني يومياتهم ومستقبلهم، وما هنالك من أشكال تعيد إليهم كرامتهم الإنسانية بعد عقود من العيش تحت رحمة التوريث والبوليس والسجون الخيالية واشكال التعذيب والاختفاء والخطف.

أي بمعنى آخر: ليست الديمقراطية قضية لدى شعوبنا كما هي قضية فلسطين، والربيع العربي كان فاشلا. وثقة التواءات نتجت من هذا الاختلال: أن كثيرين حرّضهم هذا الإهمال للقضية الديمقراطية، على إهمال القضية الفلسطينية بصفتها منافسة للديمقراطية. وبعض الأقلام استغلت على حبل هذا التحريض. والحال أن ما ينقص عالمنا اليوم هو هذا التوازن بين فلسطين والديمقراطية. أما لائحة فوائد هذا التوازن، فلا تنتهي...

(كاتبة لبنانية)

كاريكاتير — عماد حجاج

دربكة ما بعد الميناء العائم

زياد بركات

بعيداً عن اللغط الذي يتكاثر بشأن الميناء العائم الذي تعتزم الولايات المتحدة إنشاءه قبالة سواحل غزّة، فإنّ السؤال الحقيقي يتعلّق بما بعده وليس بالأهداف المفترضة له، وقد ذهب كثيرون إلى أنه حلقة من مؤامرة كبرى

مستقبل اتحاد المغرب العربي

كمال عبد اللطيف

مرّت قبل أيام الذكرى الخامسة والثلاثون لتأسيس اتحاد المغرب العربي (17 فبراير/ شباط 1989)، ولم تجد لها أثراً يُذكر في إعلام أنظمة الدول المغاربية، رغم أن الأمر يتعلّق بمؤسّسة أنشئت من أجل العمل على تعزيز (وتقوية) علاقات التعاون والتضامن بين البلدان التي أنشأتها وصاغت مواثيقها، كما رتّبت نظام حضورها السياسي في دائرة التكامل الإقليمي بين مجموعة من الدول. فكيف تمرّ ذكرى التأسيس من دون سؤال، ومن دون تفكير في مصير الاتحاد ومستقبله؟ نطرح هذا السؤال ونحن نتذكّر أن أهم مزايا الاتحاد زمن التأسيس تجلّت في تَخَلّي القادة المؤسّسين عن لغة العواطف الرومانسية، التي شكّلت الملمح البارز في الأدبيات القومية التي سادت الثقافة السياسية العربية، خلال ستينيات القرن الماضي وسبعيناته، وحرصهم على استبدالها بلغةٍ أخرى، ترتبط بمشروع في التعاون والتضامن يُمَكّن بلدانهم من استكمال مشروع في التقدّم والتنمية، يُعَزّز مكانتهم في عالم الكبار. فكيف تمرّ الذكرى من دون التفكير في واقع الاتحاد، وفي مختلف مشاريع العمل التي رسمت من أجل مغرب عربي جديد؟

اعتدنا منذ سنوات ربط جمود الاتحاد وتصلّبه وعطالة مؤسّساته بالصراع القائم بين كل من الجزائر والمغرب في موضوع الصحراء، بكل ما يحمله هذا الصراع من أبعاد تاريخية وسياسية، وبكل ما يحمله أيضاً، من معطياتٍ ترتبط بتحوُّلات النظام الدولي، وتحوُّلات النظام الإقليمي في أفريقيا وأوروبا... إلا أن كل ما أشرنا إليه لا يُحَوِّل مأزق الاتحاد إلى مأزق غير قابل للحل، حيث تتوالى السنوات ويَزداد التصلُّب سُمكاً... نحن نعرف من ميثاق الاتحاد أننا أمام فعل سياسيٍّ تاريخي، وهو مثل كل أفعال التاريخ قابلٌ للتطوير والتغيير، وقابلٌ، في الآن نفسه، للتجاوُز. المزعج في الأمر أن تتوالى السنوات ويتوالى حضور المؤسسة، من دون تساؤل أو بحث عن مستقبله، أو عن غياب تفعيله، من أجل تفكير جماعي في الأهداف والمهامّ التي رُسمت له. لم يعد ربط مصير الاتحاد بمسألة الوضع في الصحراء المغربية كافياً لفهم مختلف أسباب جموده، فقد تطوَّرت أحوال بلدان المغرب العربي خلال العقود الأربعة الماضية، وخَلّفت جملة من النتائج التي ساهمت في عزل المؤسّسة عن مجموعة من الأحداث، التي كان يفترض أن يستعيد الاتحاد عمله عن طريقها، ويحرص على تفعيل مؤسّساته بالصورة التي تُمنحه الحضور والفعل المنتظريْن منه. والإشارة هنا إلى الأحداث في كل من تونس وليبيا والمغرب والجزائر، وتواصلت من دون أي تفكير في آليات العمل التضامني التي تنصّ عليها قوانين الاتحاد. نجحت دول الاتحاد مجتمعة في التخلّي عن رسالته، وعزله عن مختلف التحوّلات والتحدّيات التي تواجهها بلدانه في علاقتها بالتحدّيات المطروحة داخل كلٍّ منها، وفي علاقتها بالمشرق العربي عموماً وبالمؤسّسة العربية الإقليمية الأخرى، مجلس التعاون الخليجي، وبجامعة الدول العربية. ولم تتمكّن بلدان المغرب العربي من بناء ما يُطوِّر أنظمتها السياسية في اتجاه توطين المشروع الإصلاحي الديمقراطي. كما لم تنجح في مواجهة التحدّيات التي تحول بينها وبين تحقيق ما تتطلّع إليه شعوبها من تنمية وتقدُّم. يبدو أن الاتحاد لم يعُد وارداً ضمن أجندة أعضائه، تَعْبُرُ ذكراه في دورة الزمان فلا يتذكّره أحد منهم، تمرّ أقطار الاتحاد بأزماتٍ بعضُها حادّ ومزمن، فلا يَرِد للاتحاد ذكر... والإشارة هنا إلى الوضع في ليبيا، فمنذ ما يزيد عن عقد لم تَتمكّن القِوَى المتصارعة داخل المجتمع الليبي من الوصول إلى بَرّ الأمان... فتحولت إلى فضاءٍ لتنافس القِوى الدولية والإقليمية، داخل المجتمع الليبي في بناء قواعد المجتمع الجديد، الذي رفعت بعض شعاراته في بدايات الحراك السياسي الذي فَجَّر الوضع السياسي في بلدان عربية كثيرة سنة 2011. فلماذا لم يشكّل مأزق الثورة في ليبيا، وتدخُّل القِوَى الدولية مناسبةً لعودة الاتحاد؟ ولماذا لم يتمكّن أعضاء الاتحاد، منذ ما يزيد عن عشر سنوات، من المساهمة في البحث عن كيفيات استعادة الأمن في ليبيا؟

تصادف ذكرى هذه السنة كثيراً من مظاهر الابتعاد عن روح الاتحاد، وما حصل، أخيراً، من ردود فعل زمن ذكرى التأسيس يساهم في مزيد من الابتعاد عن روح الاتحاد، فقد ترتّب عن التقارب المغربي الموريتاني

> لم يعد ربط مصير اتحاد المغرب العربي بمسألة الوضع في الصحراء المغربية كافياً لفهم مختلف أسباب جموده

الحاصل بمناسبة المبادرة الأطلسية، المتمثلة في المشروع الاقتصادي التجاري الذي يجمع دول غرب أفريقيا المُطِلّة على واجهة المحيط الأطلسي، وتساهم فيه دول أوروبية وأميركية ودول الخليج. ترتّب عن هذه المبادرة رَدُّ فعلٍ جزائري برز في الاجتماع الثلاثي الذي حصل في الجزائر، بين كل من تونس وليبيا والجزائر يوم 2 مارس/ آذار الحالي، بمناسبة مُنتدى الدول المصدّرة للغاز. وقد تقرّر، في الاجتماع الثلاثي المذكور، عقد لقاء مغاربي ثلاثي كل ثلاثة أشهر بعد شهر رمضان، من أجل تكثيف الجهود وتوحيدها لمواجهة التحدّيات الاقتصادية والأمنية بلغة البيان الصادر بعد اللقاء. فهل يتعلّق الأمر بخيار يتم فيه التخلّي عن الاتحاد؟ وضمن السياق نفسه، نشير، أيضاً، إلى حدثٍ ثانٍ يساهم بدوره في توسيع شقّة الخلاف بين المغرب والجزائر. فقد تَمَّ يوم 6 مارس/ آذار الجاري فتح مكتب تمثيلية ما سُمّيت جمهورية الريف، بمشاركة أعضاء مما يُسمَّى المجلس الوطني الريفي، الأمر الذي يفتح الباب أمام معارك أخرى تتجاوز مختلف صور الاضطراب التي تسيطر على أحوال مختلف بلدان المغرب الكبير، ويعيدُنا إلى مستويات أخرى من الصراع... فكيف نفكّر، في ضوء المشار إليه، في استعادة سفينة الاتحاد ومشروعه الكبير في بناء المغرب العربي؟

عندما تُضاف إلى ما سبق ردود فعل أخرى تغذّيها مليشيات التواصل الاجتماعي في الفضاءات الرقمية، وهي في أغلبها مُفبركة ومُرتّبة بهدف مزيد من توسيع درجات التباعد القائمة اليوم بين دول الاتحاد، نُدرك أن الموضوع بدأ يتخذ اليوم أبعاداً أخرى، تبرز بعض ملامحها في تزايد الإنفاق على السلاح، كما تبرُز في استخدام ما يساهم في مزيد من تفكيك المجتمعات المغاربية، وذلك بالعودة إلى النعرات القبلية والعِرقية، على حساب وحدة الوطن، ومشروع الإقليم الواحد بأهدافه وطموحاته المشتركة... فماذا ننتظر من أنظمةٍ تمارس ضد بعضها سياساتٍ تقوم على ردود فعلٍ تعرف أنها لا تساهم لا في تَحَرُّر أوطانها، ولا في التنمية التي تتطلّع إليها شعوبها؟

(أكاديمي مغربي)

عندما يدير البنك المركزي المصري السياسة الاقتصادية

عمر سمير

يلحظ المتتبع دور البنك المركزي المصري في العقد الماضي بسهولة أنه يتجاوز دوره المالي كثيراً، فهو يطرح مبادراتٍ برّاقة لتعزيز الصناعة أو الزراعة وغيرها في إطارٍ شكليٍّ لم يقد إلى تحسّن في الزراعة ولا في الصناعة، وإنما لتعامل مع المسألة الزراعية والصناعية بوصفها مسألة فنية مالية بحتة، ومن منظور لماذا لا يستدين هؤلاء المزارعون والصناع الصغار الذين يشكلون عصب الحياة الاقتصادية المصرية، سواء بالمعنى التشغيلي أو الإنتاجي؟ ويتناسى هؤلاء أدوارهم الفنية الأساسية في ضبط السياسة النقدية التي تشكّل بنية تحتية لانطلاقة القطاعات الاقتصادية، وبينما يظلّ همّهم الأكبر هو قدرة البنوك على توفير السيولة للحكومة للوفاء بديونها الخارجية والداخلية، نجد أن القطاع الوحيد الذي يحقّق مكاسب قياسية في الاقتصاد المصري هو البنوك والبنوك فقط. لا يقتصر الأمر على البنك المركزي المصري، والذي كان رئيسه أكثر ثباتا من قيمة العملة المصرية، فنشأت أجيال كاملة على الأموال المطبوعة، وعليها توقيع محافظ البنك المركزي، فنشأ جيل الثمانينات والتسعينات ومطلع الألفية لا يعرف إلا فاروق العقدة، حتى أن بعضهم اعتقد أن تجاوزه عقدة حقيقية للنظام المصرفي. ومنذ رحيله، عين الرئيس عبد الفتاح السيسي، في فترة وجيزة، ثلاثة رؤساء للبنك المركزي، جلهم جاء بوعود لاستكمال المسيرة التنموية الناجحة من وجهة نظرهم، وكيف لا تكون وجهة أنظارهم هكذا، وهم معينون من الرئيس بعد موافقة شكلية من برلمان غير منتخب انتخابا حقيقيا، وغير معبّر عن جموع المصريين ولا عن كفاءة وجدارة حقيقية؟

تتحكّم البنوك والمصرفيون ووزارة المالية في الاقتصاد المصري بشكل لافت للانتباه، ولا يمكن تجاوزه هكذا باعتباره عرضاً، بل قد يكون أساس المرض، إذ كيف يحقّق المواطنون والحكومة وكثير من القطاعات الإنتاجية خسائر أو على الأقل تعاني من ركود وانكماش، بينما لا يربح ولا ينمو إلا القطاع المصرفي، فهل يعمل المصريون واقتصادهم وحكومتهم عند المصارف أم العكس؟ ... ففي وقتٍ حقق فيه غالبية المصريين، وبالتحديد، منذ العام 2016، خسائر كبيرة في دخولهم الحقيقية، وألقي ملايين جدد تحت خطوط الفقر، ولا يزال عدة ملايين من المصريين تحت خط الجوع أو الفقر المُدقع، نتيجة السياسات المالية والنقدية التي تتبعها هذه البنوك ضمن برامج وسياسات ومشروطيات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والدائنين الإقليميين، وبيعت فيه أصول مصرية من مصانع وغيرها للدائنين الإقليميين تحت بند الاستثمارات أو الاستحواذات، تتضاعف أرباح القطاع المصرفي عاما بعد عام، فهل هذه مصادفة بحتة؟

قد يقول بعضهم وما الضرر في أن يحقق هذا القطاع كل هذه الأرباح، فهؤلاء فنيون ناجحون جدًا، وسنتجاوز عن مسألة النجاح تلك مؤقتا، فهم ناجحون بمعيار أنه قطاع ربحي لا خيري لكنه عندما يصبح القطاع الوحيد الذي يحقق أرباحا هائلة خلال عقد، مروّجا أن سياساته الناجحة كانت سببا في جذب الاستثمارات، بينما لم تأت تلك الاستثمارات ولم تتدفّق إلا لشراء أصول الدولة المصرية وتسييلها، وتساؤل آخر يتبادر إلى الذهن، وهو إذا كان البنك المركزي يستهدف التضخم حقا، وهو هدف معلن للحكومة والبنك المركزي ووزارة المالية، فلماذا لم ينجح في مجابهة هذا التضخّم خلال عقد من تلك السياسات؟ هل رفع الفائدة سياسة ناجحة أصلا في مواجهة التضخّم، وهل هذا المسار من الاستدانة ونهم الديون ومراكمة وتسييل الأصول في صناديق سيادية الذي يروّجون حتميته هو السياسة الوحيدة التي تنجح في مواجهة التضخّم؟ أم هو مجرّد استجابة لتطلعات قيادة سياسية منبهرة بالنموذج الإماراتي في العمران وإدارة المال عبر الصناديق السيادية بلا قيد من رقيب أو حسيب؟ تُخبرنا التجارب

> يحدّثنا المصرفيون دوماً عن فوائد تحرير أسعار الصرف، بينما لا يحدّثنا أحد عن كيفية تحرير المواطنين من العبودية لدى من يحكمون السوق

المعاصرة أن رفع الفائدة في الأرجنتين وتركيا إلى أرقام قياسية لم يقُد إلى الحدّ من التضخّم، بل على العكس، واصلت معدّلاته في الارتفاع حتى وصلت إلى 67% في الحالة التركية في شهر فبراير/ شباط الماضي، رغم أن سعر الفائدة وصل إلى 45%، وهي السياسة التي يديرها وزير مالية ورئيسة بنك مركزي قادمان من قلب المؤسّسات المالية الدولية، ومن أنصار الحلول الفنية للأزمات الاقتصادية، ولم ينجحا على مدار ثمانية أشهر في إحداث اختراقٍ في سياسة مواجهة التضخّم. ويجادل مصرفيو مصر بأن سياسة رفع الفائدة هي لحماية المودعين والمدّخرين من آثار التضخّم، لكن حتى بعد هذه السلسلة من رفع الفائدة، فسعر الفائدة الحقيقي قد يكون سلبيا، لأن التضخّم يظل أعلى من الفائدة. وبالتالي، أية حماية للمدّخرات والمدّخرين قد حصلت؟ ويعيدنا هذا إلى سؤال آخر حول من هم المدّخرون؟ وإذا كان معدل الادّخار العام في مصر أساسا لم يتجاوز خلال العقد الماضي 10% من الناتج المحلي الإجمالي في المتوسّط، فأي مدّخرين تحمي تلك السياسة وقرابة نصف المصريين خارج النظام المصرفي بعد عقد من ترويج الشمول المالي؟

بل إذا عدنا إلى مسألة النجاح ومعاييره فهل يحدّثنا البنك المركزي ورجالات القطاع المصرفي عن الأموال الساخنة، وعن خروج الأموال في المجمل من الاقتصاد المصري، أم سيظلّون يحدثوننا فقط عن صافي الاستثمار الأجنبي المباشر، بينما يتغاضون عن الخروج الكبير للأموال وتسرّبات القيمة التي حدثت خلال العقد المنصرم، وهي أكبر بكثير مما حدث في العامين التاليين للثورة، والتي تلقي هذه النخب المالية والسياسية باللائمة عليها في أي تعثّر حقيقي؟

(كاتب مصري)

لبنان في مسابقة الجمال والحرب

يقظان التقي

حصدت ياسمينا زيتون (24 عاما)، ملكة جمال لبنان 2022 لقب الوصيفة الأولى لملكة جمال العالم 2024 في الحفل الذي أقيم أخيرا في مومباي في الهند. يعتبر هذا الإنجاز مهمًا للبنان، حيث إن شابة لبنانية أصبحت وصيفة لملكة جمال العالم كريستينا بيتشكوف من التشيك. وتمكنت ياسمينا زيتون أيضا من الفوز بلقب ملكة جمال آسيا وأوقيانيا. وأشاد كثيرون بجمالها وذكائها. واستغلت منصّتها في المسابقة للتحدّث عن الأزمات التي يواجهها لبنان والعالم العربي، مثل الحرب والجوع والفقر والأمن الغذائي. وركّزت على أهمية التنمية المستدامة ومقاومة ثقافة الموت، ما ساعدها على الوصول الى مرتبة الأربعين الأوليات في المسابقة. كما أعربت عن رغبتها «بإنشاء مطبخ عام يقدم الطعام مجّانا للمحتاجين كجزء من خططها المستقبلية».

وتعكس هذه القضايا التي تحدثت عنها ياسمينا الظروف الصعبة التي يعيشها الشعب اللبناني، وتظهر التزامها بالعمل على تحسينها. اسم تحوّل الى «تريند» على شبكات التواصل الاجتماعي، على نضارة، بعكس صورةٍ أخرى تعرّضت للتمزّق والانقسامات. لدى ياسمينا أصول فلسطينية أردنية من جهة والدتها أسمهان الهلالي، من مواليد بلدة كفرشوبا اللبنانية، يعمل والدها إسماعيل زيتون مزيناً نسائياً في صالون يملكه في صور، وهذه المنطقة شاهدة على اشتباكات دائمة عسكرية تأتي في سياق التوتّرات المستديمة مع الإسرائيلي المحتل إلى أقصى ضفة العنف على الحدود في المنطقة، وتعكس ماضيا وحاضرا الوضع الأمني المتفلت والمقلق، الذي يؤثر على حياة السكان هناك. فانتقلت ياسمينا ودرست في جامعة سيدة اللويزة، وفي 2021 حازت شهادة مقدمة تلفزيونية في معهد الجزيرة للإعلام في الدوحة. وفي 2022، بدأت في تقديم عرض تلفزيوني «مع ياسمينة شو».

تتضمّن المعايير في مسابقات الجمال عدة جوانب، منها جمال المظهر، الثقافة، والموهبة، بالإضافة إلى القدرة على الإجابة على أسئلة لجنة التحكيم. تميّزت ياسمينا بجمالها الطبيعي والقدرة على التواصل الفعّال. وهي صفاتٌ، تعتبر مهمّة في المسابقات. وبالمقارنة مع الملكة والمتسابقات الأخريات، يمكن القول إن ياسمينا استطاعت أن تبرُز بفضل تميّزها في هذه المعايير، وقدرتها على تمثيل ثقافتها وبلدها ومنطقتها العربية بشكل إيجابي، كما تأكيدها على القضايا الاجتماعية والإنسانية خلال المسابقة، قد ساعد في تعزيز مكانتها وتميّزها عن زميلاتها.

لبنان في مسابقة الجمال والحرب، بلد ذو تاريخ طويل وثقافة غنيّة، يواجه تحدّيات كبيرة بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية والأمنية. ومع ذلك، يظهر الشعب اللبناني قوة ومرونة استثنائية في مواجهة هذه التحدّيات. مشاركة ياسمينا في المسابقة وحصولها على لقب الوصيفة الأولى مثال عن الجمال والقوة اللبنانية، إنه يعكس الروح الإيجابية في المنطقة ككل والأمل في مستقبل أفضل، حتى في أوقات الصعوبات والاشتغال ببحث اللبنانيين عن شيْء للأكل والهرب من قرارات الحرب. كأنها مثلّ قرارات نهاية الحياة المؤلمة، استخدمت الشابة قصّتها للتعبيرعن القضايا المهمة في منطقتها ولتسليط الضوء على تلك الظروف الصعبة، ما يظهر أن الجمال يمكن أن يكون أداة للتعبير عن التأثير الإيجابي. الجمال يعني إزالة الفوارق وتأمين شروط الحياة، والشعور بالرضا بخصوص استمرار البقاء في العالم قريبا من البشر الآخرين، ومن نوع علاقة إنتاج الجسد مع جسم الأرض.

مشروعا الحرب والجمال في لبنان هما طرفان متناقضان في الوجود الإنساني.

> تذكّر ياسمينا زيتون اللبنانيين بأن هناك أملاً، وأن هناك غداً، وأن في القلب اللبناني متسعاً للحب، حتى في ظل الحرب المتصاعدة في الجنون

تجلب الحرب الدمار والألم والفقدان، بينما الجمال يمكن أن يوفّر الراحة والأمل والإلهام، حتى في أصعب ظروف الأفراد. في الحرب، تزهق الأرواح والقلوب تحترق. ليس الجمال إلا نبض الحياة في وجه الدمار الذي بدأ يلفّ قرى الشريط الحدودي، الذي تهجّرت منه ياسمينا وعائلتها، وفي عين العاصفة التي تحيط باللبنانيين حالياً. تذكّر ياسمينا اللبنانيين بأن هناك أملا، وأن هناك غدا، وأن في القلب اللبناني متسعا للحب، حتى في ظل الحرب المتصاعدة في الجنون. ... يمكن أن يكون للحرب والجمال كيانهما الخاص في سياقات صعبة. قد يطمئن بعضهم الى مثل جمال ياسمينا ولغتها ونبرتها، وهناك من قد يجد جمالا في الحرب، وقد تحدّث نائب أمين عام حزب الله الشيخ نعيم قاسم «عن جهوزية»، و«أن الحرب ستتوسع». وقد يظهر كيف يمكن للإبداع أن ينبثق من الألم ومن الفوضى التي يمكن أن تكون مدمرّة أو خلّاقة.

ليس هذا حال قادة تدوير «النفايات السياسية» من اليمين المتطرّف في إسرائيل، وتحويلها الى منتجاتٍ عالمية جميلة في الإحتلال والاستيطان والإبادة والتطهير العنصري. في المقابل، قد يرى أن هناك جمالا في الحرب من خلال الشجاعة والتضحية التي يظهرها أبناء الشعب الفلسطيني، ومن خلال إرادة البقاء على الأرض. فن البقاء الذي نشأ واستمرّ كرد فعل على الصراع ويعبّر عن الأمل والإنسانية. ومع ذلك، لا يقلّل هذا من الدمار والمعاناة التي تتسبّب بها الحرب، والتي لا يمكن إنكارها.

(كاتب لبناني)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads